

القراءة الأركونية لظاهرة الوحي القرآني: مقاربة تحليلية نقدية

Arkounian reading of the phenomenon of Qur'anic revelation:
an analytical and critical approach.

الحاج دواق

يزيد سكوب *

جامعة باتنة 1

جامعة باتنة 1

مخبر العولمة وحوار الحضارات

مخبر العولمة وحوار الحضارات

elhadj-1971@yahoo.fryazid.sakoub@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2024-12-14

تاريخ الإرسال: 2024-10-27

ملخص:

يعد محمد أركون من أبرز الباحثين المعاصرين الذين سَعُوا إلى تقديم قراءة تجديدية للنصوص الدينية عامة، والنص القرآني خاصة، وقد ارتكز مشروعه الفكري الموسوم بـ "العقل الاستطلاعي المنبثق حديثاً" على توظيف الأدوات والمناهج المعرفية التي طورتها العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية الحديثة في دراسة النص القرآني. يهدف أركون من خلال هذا المشروع إلى تحليل النصوص الدينية بطرق غير تقليدية، محاولاً تجاوز القراءة التقليدية للقرآن التي أنتجها التفسير الكلاسيكي، والتي يصفها بالأرثوذكسية المغلقة. وبالتالي يسعى إلى تحرير النص القرآني من القيود التأويلية التي فرضتها تلك القراءات، ويقترح مقاربات جديدة تعتمد على دراسة النص في سياقاته التاريخية والاجتماعية، مع الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة مثل السيميائية، الأنثروبولوجية، واللسانية.

في هذا السياق، يسعى المقال إلى استكشاف وتحليل الأسس التي قام عليها المشروع الأركوني، وذلك من خلال مقاربة تحليلية نقدية، تهدف إلى تقديم فهم أوسع للظاهرة القرآنية من منظور معاصر، يتجاوز الأطر التقليدية ويطرح تساؤلات جديدة حول النص القرآني وكيفية قراءته وتفسيره.

الكلمات المفتاحية: أركون؛ وحي؛ قرآن؛ ظاهرة؛ تاريخية.

Abstract:

Mohammed Arkoun is one of the most prominent contemporary scholars who sought to offer a renewed interpretation of religious texts, particularly the Quran. His intellectual project, titled « The Emerging Exploratory Reason . »

* - المؤلف المراسل.

employees modern Western social and human science methodologies in studying the Quranic text. Arkoun aims to move beyond the traditional exegesis, which he describes as closed orthodoxy, by liberating the Quran from interpretive constraints. He proposes new approaches that examine the text within its historical and social contexts, benefiting from modern critical methods like semiotics, anthropology, and linguistics. This article critically analyzes Arkoun's project to provide a broader contemporary understanding of the Quranic phenomenon.

Keywords: Arkoun, revelation, Quran, phenomenon, historical.

مقدمة:

اهتم العلماء عبر التاريخ بالنص القرآني من حيث التفسير والتأويل، والتحليل والقراءة، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية. وقد تنوعت مناهجهم بناء على اختلاف مشاربهم وخلفياتهم، فنتج عن ذلك قراءات حديثة ومعاصرة للخطاب القرآني، مثل قراءة محمد أركون الذي انصبّت اهتماماته القرآنية ومحاولته تقديم قراءة مختلفة للقرآن، وتأويله وتفسيره، وانطلاقاً من الارتباط القائم بين أبحاث النص ومعرفة الوحي، وكذلك ارتباط الوحي باللحظة (الحدث) القرآنية، فإن رؤيته بشأن "الظاهرة القرآنية" تشمل جانبين رئيسيين، وهما: قراءته للوحي، وكذلك قراءته لتدوين وبلورة القرآن في شكله الأخير.

ومن هنا فإننا على هامش عنوان هذا المقال القراءة الأركونية لظاهرة الوحي القرآني سوف نبحث مسألتين "الوحي" و "القرآن" من خلال المنظورية الأركونية. فما مفهوم القراءة في الفكر الحدائلي بصورة عامة ولدى محمد أركون بصورة خاصة؟ وما الأسس التي قامت عليها وما هي سمات هذه القراءة الأركونية؟ ماذا نعني بالظاهرة القرآنية؟ وما الفرق بينها وبين الحدث القرآني؟ ما هو مفهوم الوحي عنده وما هي مستوياته؟ وهل استطاع أركون أن يؤسس فعلاً لقراءة جديدة تتجاوز النمط التفسيري الكلاسيكي؟

1- القراءة الأركونية للوحي

1.1- مفهوم "القراءة" في الفكر الحدائلي العربي:

إن مصطلح "القراءة" نال اهتمام الكثير من الباحثين في حقول معرفية وسياقات نظرية متنوعة، عملوا من خلالها على تأسيس مشاريعهم تحت مظلة هذا المفهوم، رغم اختلاف المناهج والإيديولوجيات، التي أدت بدورها إلى تعدد القراءات بتعدد المرجعيات المنطلق منها لدى أصحابها، الذين استشعروا أهمية اعتماد الأدوات الغربية للتعاطي مع

القرآن، ونجد من بينهم محمد أركون الذي وسم مشروعه الفكري، بالعقل الاستطلاعي النقدي المنبثق في العصور الحديثة، والمتكون من جهات ثلاث رئيسة أظهرها التعاطي مع الوحي وتجليه القرآني، خاصة ما تعلق منها بالقرآن "قراءات في القرآن"، إلا أن الغاية المتغلبة عن تلك القراءات واحدة وهي اختبار مدى تميزه عن النص البشري ومدى إمكانية ذلك، وإخضاعه للأشكلة بلا قيد ولا ضابط بعيدا عن "السياج الدوغمائي المغلق"، لأن كل قراءة للواقع القائم تخلق واقعا خاصا بها، بمعنى أنها تُنتج معطى جديدا يسهم في تغيير الواقع. كما أن كل قراءة للنص تضيف بعدا جديدا، وكل قراءة للواقع تساهم في تجديد النصوص والمعاني. معنى ذلك أن القراءة بنظر الحداثيين قراءة تتجاوزية تسعى إلى تخطي كل أنماط القراءات وأنظمة الفكر القروسطي الأرثوذكسي المغلقة، وكل ما من شأنه أن يكون عائقا أمام فتح أفق القراءة الحقة التي تعطي القارئ كامل الصلاحية في ممارسة فعل الفهم والنقد، اعتمادا على آليات جديدة وعدة ضخمة من المناهج النقدية "وتكوين علي والإحاطة بالأرضية المفهومية الخاصة باللسانيات والسيمانيات الحديثة مع ما يصاحبها من أطر التفكير والنقد الاستمولوجي"¹، رغبة في استنطاق النص وإنتاج معان جديدة قد تكون منافية لمراد المدونة التفسيرية التراثية حول القرآن، إذ يعتبره نصا منفتحا يقبل عدة قراءات وليس قراءة واحدة، قراءة استطلاعية تتعامل مع النص من منظور التاريخية وتخضعه للمساءلة بغية الوصول إلى اللامفكر فيه، واستكشاف المسكوت عنه، قراءة من شأنها تعطيل وتعليق كل الأحكام اللاهوتية التي جعلت الخطاب القرآني لا تاريخيا متعاليا ومتجاوزا ومهيمننا على التاريخ كله.

1- أركون محمد، 2001، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ط1، دار الطليعة للطباعة

والنشر، بيروت، ص 46

2.1- أركون بين الظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامية:

في إطار السعي لنقل دراسة النص الديني من المنهج اللاهوتي التقليدي الى أفق بحثي أكثر تحررا، يميز أركون بين النص الديني كخطاب شفهي وبين كونه خطابا مكتوبا، حيث يركز على اللغة البشرية التي نزل بها القرآن شفها في البداية، ثم تم تدوينه لاحقا.

هذا التحول من الشفهي الى المكتوب يعكس اختلافا عميقا في طبيعة النص، وبفهم هذا الاختلاف يمكن الكشف عن الأبعاد اللغوية والاجتماعية والثقافية للنص القرآني. كما يفرق أيضا بين "الظاهرة القرآنية" و "الظاهرة الإسلامية". مثلما يميز بين التوراة واليهودية والإنجيل والمسيحية، ويشير الى أن مالك بن نبي كان أول من استخدم مصطلح "الظاهرة القرآنية" من منظور تقديسي، ما يسعى أركون تجاوزه لصالح فهم تاريخي للنص الديني، يربطه بشروطه الثقافية واللغوية والتاريخية، بعيدا عن الإيديولوجية. مؤكدا على أن الظاهرة القرآنية تمثل حدثا شفها محددًا بزمن ومكان معينين، يعالج قضايا تتناسب مع مستوى الفكر في ذلك الوقت، مما يجعل إجابات القرآن غير صالحة بالضرورة لمعالجة أسئلة العصر الحديث، فبعد وفاة النبي تحول القرآن الى نص مكتوب ومغلق في شكل مصحف، ولم تعد الظاهرة الإسلامية مجرد امتداد للظاهرة القرآنية، بل ارتبطت بالممارسة السياسية، حيث استغلت الدولة هذا البعد الروحي لتحقيق مصالحها.

3.1. مفهوم الوحي ومستوياته في فكر أركون:

يتأسس مفهوم الوحي على مجموعة من العناصر التي تتكامل لتكون في النهاية معنى محددًا، ولكنه ليس ثابتًا أو مطلقًا، بل هو معنى مؤقت قد يتغير عندما يظهر تفسير أكثر قوة أو سلطة، وعند استقرار مفهوم الوحي لدى أركون، نجد أنه منذ البداية يسعى الى إزالة كل العوائق التي تحد من سلطة العقل، بما في ذلك المفاهيم التقليدية الموروثة، وأبرزها مفهوم الوحي الذي يعتبره جزءا من الرؤية الأسطورية التي تسود النظرة الإسلامية التقليدية التبجيلية، والتي تفسره عادة على أنه كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه. فهو مفهوم تقليدي بسيط ويحتاج الى إعادة نظر، وإعادة صياغته وطرح فهم جديدة تززع هذا التصور المستقر في وعينا. فالوحي، وفقا لفهمه، ليس كلاما إلهيا معياريا نازلا من السماء

لإلزام البشر بتكرار طقوس الطاعة والممارسة إلى الأبد، بل هو معنى للوجود يمكن مراجعته ونقضه بناء على أحكام الناسخ والمنسوخ. وبالتالي إثبات تاريخيته وتغير أحكامه ومعانيه. ويقترح تعريفاً آخر للوحي، إذ يعتبره "حدوث معنى جديد في الفضاء الداخلي للإنسان، يفتح إمكانيات لا نهائية ومتجددة من المعاني للوجود البشري"¹، ويعمم هذا التعريف ليشمل الديانات مثل الكونفوشيوسية والبوذية، مما ينفي فرادة الوحي الإلهي ويجعله تجربة إنسانية مفتوحة. كما يميز بين مستويين للوحي:

- **المستوى العالي من الوحي:** المستوى الأول النموذج المثالي للكتاب (أم الكتاب) والمتمثل في اللوح المحفوظ، ولا يكون هذا المستوى من الوحي بمتناول أحد غير الله سبحانه وتعالى، فلا يطلع عليه حتى الأنبياء.

على المستوى الأول هناك النموذج الأصلي للكتب أو ما يشير إليه القرآن في كثير من الأحيان باسم أم الكتاب، فالوحي في مستواه الأول وحي أبدي خالد يحوي الحقيقة المطلقة، والتي هي وفقاً لأركون بعيدة عن متناول فهم الإنسان، لأن هذا النموذج من الوحي مصون في اللوح المحفوظ وظل مع الله وحده، ولم يصبح معروفاً للإنسان إلا من خلال المستوى الثاني الذي مع ذلك خضع لتعديلات ومراجعات.

- **المستوى الأرضي والتاريخي من الوحي:** يتجلى على شكل كتاب خاص، مثل: القرآن والإنجيل والتوراة في إطار لغة بشرية، وبمعنى آخر الكتاب المعلن التاريخي، الكلام المبلغ للناس، المرتبط منذئذ بتاريخ الخليقة الأرضي، الكلام المنسوخ بأيدي البشر على رق، أو ورق، مجموع في كتاب مجلد، في مصحف ألقبه وأنقله وأقرؤه وأترجمه².

يسعى أركون من خلال الإشارة إلى هذين المستويين إعلان التمايز والاختلاف بين الكلام الإلهي والكلام النبوي، ذلك أن كلام الله أزلي لا يمتلك أي إنسان القدرة على استيعابه ولو كان نبياً مرسلًا، أما الكلام النبوي فهو مجرد ترجمة لمعاني الوحي وفق مقتضيات العصر والبيئة التي ظهر فيها، ومن خلال هذا التمييز، يطرح تساؤلات حول

1- أركون محمد، 2007، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ط4، دار الساقى، بيروت، ص 89.

2- أركون محمد، 1996، نافذة على الإسلام، ترصياح الجهم، ط1، دار عطية للنشر، بيروت، ص 62.

تجسيد كلام الله في المصحف، موضحاً أن الوحي بدأ كخطاب شفهي من النبي ثم تحول إلى نص مقدس، رفع إلى مرتبة القداسة عبر مسار تاريخي طويل. هذا التحول يعكس عملية تاريخية واجتماعية رفعت القرآن من مجرد نص شفهي إلى كتاب مقدس غير قابل للنقد، مما يشير إلى نفس المصادر التي يعتمد عليها التاريخانيون في فهم تشكل القرآن وتأثير الظروف الاجتماعية والسياسية على رفعه لمكانة القداسة.

فلفظ القرآن لا يصح أن يطلق حقيقة إلا على الرسالة الشفوية التي بلغها الرسول إلى الجماعة التي عاصرتة، أما ما جمع بعد وفاته في ترتيب مخصوص ودون بين دفتين فمن المعروف أن الصحابة أنفسهم لم يكونوا في البداية متفقين حول مشروعية هذا الجمع الذي لم يقيم به النبي (ص)، ولم يأمر به، فعارض عمر بن الخطاب مثلاً الرأي الذي رآه أبو بكر في هذا الشأن قبل أن يشرح الله صدره لمبادرة الخليفة، وترددوا حتى في الاسم الذي سيطلقونه على هذه الظاهرة قبل أن يستقر الأمر على نعتها بـ "المصحف" ثم كان توحيد هذه المدونة بقرار سياسي¹، فليس مؤكداً أن جميع الخطابات الشفوية قد دون بدقة، فقد فقدت أجزاء منه، وقد تكون عملية التدوين شابتها تلاعبات لغوية، وحذف وتلفيق، وفقدان للمعلومات أثناء الطريق، مما يعني أن أركون قد سعى إلى ترسيخ دعواه المتمثلة في وجود فاصل زمني بين تنزيل القرآن من جهة وتدوينه من جهة أخرى، إذ الخطاب النبوي عنده هو القرآن المتلو بدقة وأمانة، وبصوت عال أمام حفل أو مستمعين معينين، وهو الموجه إلى الجماعة الأولى التي كانت تحيط بالنبي، والتي سمعت القرآن من فمه أول مرة، ومن خصائص هذا التبليغ الأولي أنه قد ضاع إلى الأبد.

ومن بين الخصائص الأخرى لرؤية أركون للوحي نفي معياريته المطلقة، حيث ينظر إلى النبوة من منظور أنثروبولوجي متأثر بتعاليم ما بعد الحداثة ومدرسة الحوليات. إذ يرى أن الإنسان نتاج التاريخ والمجتمع، مما يجعل النبي شخصية تاريخية كغيره من الأبطال الحضاريين، تسهم في بناء حضارة جديدة. الفرق بين الأنبياء وسائر العظماء يكمن في الوسيلة المستخدمة لتحقيق أهدافهم، حيث يوظفون ظاهرة معقدة تسمى "الوحي"

1- الشرفي عبد المجيد، 2008، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص 49.

لتحريك مشاعر الناس نحو النجاة والسعادة. لما يتميز به النبي من قدرات معرفية وإلهامية تفوق غيره، تجذب الناس إليه دون إكراه، ما يعني أن الوحي ليس معياراً ثابتاً من السماء، بل أداة لبناء حضارة في زمن معين.

2- قراءة أركون لتاريخ القرآن وخصائصه:

تتعدد أسماء القرآن، فهو القرآن والفرقان والذكر والكتاب والتنزيل، وغير ذلك، ولكل اسم معانٍ اختص بها عن غيره، غير أن اللافت للانتباه في كتابات أركون هو عدوله عن استخدام تلك الأسماء جميعها، وتعويضها بمجموعة من الأسماء تحمل مجموعة من المعاني، تتعدد بتعدددها، فمن خلال بحثه عن القرآن، بدلاً من استعمال كلمة "القرآن" يلجأ إلى استعمال مصطلح الظاهرة القرآنية، أو مصطلحات أخرى من قبيل: "الخطاب النبوي"، "المدونة الرسمية المغلقة"، "الحدث القرآني"، أو "الحدث التأسيسي" وهو أعم من مصطلح "الحدث القرآني"، وما لجوؤه إلى مصطلح "الظاهرة القرآنية" إلا ليحتز – بزعمه – من المضامين اللاهوتية لكلمة "القرآن"، ويعمل في الوقت نفسه على فتح الطريق أمام إعادة قراءة هذا الجانب من التراث، ويعمل في الأثناء على تبين اتجاهه التاريخي من خلال ذلك. إن رؤية أركون بشأن القرآن تقوم على أصليين، وهما:

1- الفصل بين الكلام الشفهي والكلام المكتوب.

2- اعتبار وحدة البنية المعرفية للأديان التوحيدية.

القول بالفصل بين الكلام الشفهي والكلام المكتوب، يعود بجذوره إلى مصطلحي العقل الشفهي والعقل الكتابي اللذين صدع بهما جاك غودي، كما تأتي مساواته بين الأديان التوحيدية من مقارنته المتكررة بين الإسلام والمسيحية واليهودية¹، من هنا جاء تأكيده على ضرورة تكرار نفس التجربة النقدية مع التراث الإسلامي وبالأخص النص القرآني، وإيراد ذات التشكيكات التي أثارها المفكرون اليهود والمسيحيين مع تراثهم وأناجيلهم.

1- أركون محمد، 1996، العلمنة والدين، الإسلام المسيحية الغرب، ط3، دار الساقى، بيروت. ص 84.

يرى أركون أن القرآن في بدايته كان خطاباً شفهيّاً نابعا من الوحي، تلاشى بعد النطق به، ولم يعد بالإمكان الوصول إلى نصه الأصلي في الأزمنة اللاحقة لعدم توفر وسائل التسجيل آنذاك. في رأيه، كان القرآن مثل العهدين القديم والجديد، خطاباً شفهيّاً مرتبطاً بظرف زمني ومكاني خاص، ولم يكن نصاً مكتوباً كما هو متداول اليوم. النص المكتوب تم جمعه بعد ثلاثين عاماً من وفاة النبي (ص) وتحول إلى مصحف رسمي. عند انتقال القرآن من الشفوية إلى الكتابية، يعتقد أركون أنه أصبح نصاً مادياً مثل سائر الكتب، نتاجاً لمجهود تقني حضاري، وارتبط بالبيئة الثقافية والسياسية آنذاك، لكنه تحول إلى كتاب مقدس بدعم من السلطة الحاكمة.

ومن خلال إطلالة جامعة على الآراء الشائعة بشأن تدوين القرآن يخلص إلى تكوين رأيه حول جمع القرآن حيث يذهب إلى الاعتقاد بأن جزءاً من آياته قد تم تدوينه في حياة النبي، وأن جمعه كاملاً قد حدث بعد رحيله سنة (632م)، وتم إعداده بصورة مصحف في عهد عثمان، مما يعني إبطال الرواية السائدة في التراث الإسلامي من خلال الإشارة إلى رأي المستشرق الألماني "ثيودور نولدكه"، وطرح هذه الرؤية القائلة بأن عملية جمع القرآن قد تمت في ظروف صاخبة من التنافس السياسي¹، والذي كان على مستوى التأويل والتفسير لا على مستوى ألفاظ القرآن وكلماته، وهذا الإقرار تنقضه النظرية الأخرى القائلة بإشراف النبي على جمعه إلى آخر حرف منه.

1.2. لغة القرآن عند أركون.

يرتبط مفهوم "لغة القرآن" بخصائصه، مثل الكلمات والعبارات، ويتعلق ذلك بكيفية تواصل المعنى مع المخاطبين. يتساءل أركون عن بنية العبارات، سواء كانت إخبارية أو إنشائية، حقيقية أو رمزية، وغيرها. ويرى أن لغة القرآن تتمتع بنظام داخلي، فهي حقيقية وأسطورية وتمثيلية.

1- أركون، 2007، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، تر: هاشم صالح، ط4، دار الساقي، بيروت، ص 90.

أولاً، رغم عدم ترتيب الموضوعات وتكرار الإشارات التاريخية والجغرافية، فإن القرآن يحتوي على نظام داخلي يربط بين المفاهيم ويعبر عن أفكار وأحاسيس موحدة، مما يعزز الارتباط المقدس بالله.

ثانياً، لغة القرآن حقيقية، لأنها تتماشى مع سعي الإنسان نحو الخلاص وتوفير إمكانيات وجودية ضمن قضايا معينة.

ثالثاً، يستخدم القرآن لغة رمزية واستعارية، مما يعكس مفاهيم مثل الجنة والنار من خلال صور ترتبط بالخيال الشعري للعرب. وقد أدخل القرآن علاقة أنطولوجية بين الجوانب الأساسية للحياة البشرية والأشياء الكونية، محولاً العناصر المادية إلى دعائم رمزية متعالية عبر استخدام المجاز بشكل كثيف¹. مما جعل بنية القرآن تتمايز عن النصوص الإسلامية الأخرى مثل الحديث والفقه، حيث يتشابه أسلوبه اللغوي والبياني مع الكتب المقدسة السابقة مثل التوراة والإنجيل. فقد استخدم أنواعاً متعددة من الخطابات، مثل النبوي والتشريعي والقصصي والحكمي والتسبيحي. مما يعني أن الجانب الإبداعي والرمزي للمحتوى القرآني يتميز بتفوقه على الجانب المنطقي والعقلاني، ما يجعل فهمه وإدراكه يتم عبر "القلب" بدلاً من "العقل". وبالتالي، تقدم المعاني القرآنية من خلال الرموز والمجازات والأمثال قبل أن تحدد بواسطة المفاهيم المنطقية.

2.2. أنواع القراءة الأركونية للوحي ولغته.

النقطة الأخيرة بشأن رؤية أركون القرآنية تكمن في قراءته للقرآن، والتي يمكن إجمالها في: ضرورة أن تكون الرؤية للنص القرآني رؤية شاملة مشفوعة بالالتفات إلى السياق، مع وجوب الالتفات إلى البنية الأسطورية واللغة الاستعارية في القرآن، مع السعي إلى تقديم أساليب ومناهج حديثة لفهمه وعدم الاكتفاء بالنتائج التي حققها المتقدمون، فمن خلال بيان بعض خصائصه، يذهب إلى الاعتقاد بأن قراءة القرآن يجب أن تتم عبر ثلاث مراحل، وهي:

1- أركون محمد، 1990، الإسلام، الأخلاق والسياسة، ط1، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص 180.

المرحلة الأولى: المرحلة اللغوية واللسانية.

التي تمكننا - بزعمه- من الوصول إلى النظم الباطني للقرآن من خلال النظم الظاهري له، بمعنى أنه من خلال توظيف الأساليب اللغوية بدلا من الخوض في الأجزاء المنفردة، وجب التركيز على كل النص، بالبحث عن منظومة الارتباط الداخلي لمجمل القرآن، والبحث عن معنى القرآن على مستوى هذه العلاقات، ولذلك يجب أن نتجنب كل نوع من أنواع القراءة الدستورية القائمة على الاستنباطات المنطقية والنحوية السائدة. من هنا يقترح منهجية جديدة في قراءة النص القرآني باستخدام المعارف اللغوية و السيميائية والنقدية، مؤكدا أن علم السيميائ يطمح إلى الاستعادة النقدية التي تتخذ مسافة بينها وبين المواد المقروءة الأولية، ثم كل المواد الثانوية التي أنتجها التراث في آن معا، وفي هذا الإطار لا يخفي قلقه من قلة الأبحاث السيميائية على النص القرآني، مستثنيا منها محاولة نصر حامد أبو زيد التي لا تشفي غليله، رغم كونه أول باحث مسلم يكتب بالعربية بادر إلى تطبيق الألسنيات الحديثة على النص القرآني، ورغم ما أحدثته كتاباته من ضجة فإن أركون يراها عادية تدل على مدى اتساع اللامفكر والمستحيل التفكير فيه، مؤكدا من جهة أخرى على أن التحليل السيميائي يتطلب من الباحث مهنتين أساسيتين: المهمة الأولى، أن يكون الباحث ملما بتكوين علمي شامل ويمتلك معرفة عميقة بالأرضية المفهومية للسانيات والسيميائيات الحديثة، بالإضافة إلى فهم أطر التفكير والنقد. أما المهمة الثانية، تكمن في أنه يتعين على الباحث أن يتدرب على التمييز بين الاحتجاج والإدراك والتأويل والتفسير الذي يحدث ضمن الإطار المعرفي الدوغمائي، وبين التحليل والتفكيك للخطاب الديني، فهذان نهجان مختلفان تماما. هذه القراءة اللسانية السيميائية، تهدف إذن إلى قراءة القرآن كأَيّ كتاب عادي؛ وبالتالي الوصول إلى تاريخية النص المقدس.

المرحلة الثانية: المرحلة الأنثروبولوجية التاريخية.

يعتقد أركون أن الإسلام التقليدي والحركات الأصولية تخشى تطبيق المنهج التاريخي على القرآن والتراث، لأنه قد يحرر الناس من سيطرة رجال الدين. ويقترح تبني قراءة أنثروبولوجية لفهم البنية الأسطورية في القرآن، مع التمييز بين الباحثين المسلمين والأوروبيين، وبين الإيمان والعقل النقدي. منتقدا المحدثين مثل طه حسين لعدم دفعهم النقاشات حول التراث نحو دراسة أعمق للأطر الاجتماعية والثقافية في القرنين الأولين

للهجرة. ومؤكدا على ضرورة إعادة تقييم التاريخ الثقافي العربي والإسلامي لفهم التوازن بين الشفهي والكتابي، والأسطوري والعقلاني، والمقدس والدنيوي، في ضوء الاكتشافات الجديدة. وعبر مفهوم مجتمع الكتاب يرى أن التراث له بعدان مهمان غالبا ما تم تجاهلهما في المقاربة الثيولوجية الدوغمائية، العمليات الثقافية التي يتداخل فيها الكتاب المقدس مع المجتمع من منظور تاريخي وسوسيولوجيا التلقي، أي كيفية تلقي الفئات الاجتماعية المختلفة للتراث. فالتراث ليس مجرد نصوص دينية، بل هو نتاج جماعي تشارك فيه كل الفئات. في هذا السياق، يُعد النقد التاريخي الذي يقوم به الفيلولوجيون مجرد خطوة أولى، ولكن فهم أعمق لهذا التراث يتطلب تحليلاً أنثروبولوجياً لتجارب الجماعات وتشكيلاتها النفسية، مما يفتح المجال لإعادة النظر في التراث وطرحه للنقاش.

المرحلة الثالثة: المرحلة التأويلية اللاهوتية.

يقصد أركون بالقراءة الإيمانية كل ما يتعلق بالتفسير القرآني الذي يعزز الإيمان. ويشير إلى أن هذه القراءة محصورة داخل إطار دوغمائي مغلق، وأن التفاسير الإسلامية الكبرى أصبحت نصوصاً أرثوذكسية. لذلك، يرى أن القراءة الإيمانية يجب أن تأتي بعد القراءتين التاريخية والأنثروبولوجية، لأن استمرار اعتبار القرآن نصاً مقدساً بشكل تقليدي قد يؤدي إلى مشاكل لاهوتية. النوع المطلوب من اللاهوت وفقاً لأركون، هو إيمان عقلاني يتفاعل مع الواقع التاريخي والابستمي المعاصر، مما يغني المعرفة التاريخية ويؤدي في ذات الوقت إلى نقد أقل تجريداً وتأملاً صرفاً للعقل الديني.

يرى أركون أن القراءة الإيمانية للقرآن تعتمد على مجموعة من المبادئ اللاهوتية الأساسية التي تشكل مسلمات غير قابلة للنقاش بين جميع المسلمين. هذه المبادئ تتلخص في أن الله قد أعلن مشيئته للبشرية عبر الأنبياء باستخدام لغات مفهومة للشعوب المعنية. وأن القرآن هو آخر الوحي، مكملاً لما جاء به موسى وعيسى، ومصححاً للتحريفات التي أصابت التوراة والإنجيل. بالإضافة إلى ذلك، يؤكد أن الوحي في القرآن شامل وكامل لتلبية احتياجات المؤمنين، ولكنه لا يستنفد كلمة الله كلها، حيث يحفظ الوحي الكامل في "الكتاب السماوي" أو "اللوح المحفوظ" كما يصفه القرآن. كذلك يشير إلى أن عملية جمع القرآن في مصحف مكتوب كانت دقيقة وبدأت في حياة النبي واكتملت في فترة الخلفاء الراشدين خاصة في عهد عثمان. ويبرز التوتر بين قداسة الوحي الإلهي من جهة، وبين القوانين

الوضعية والنظام الاجتماعي الحديث من جهة أخرى. خصوصاً منذ أن فرضت الدول ما بعد الاستعمار الإسلام كدين للدولة، ثم أعطت في الوقت ذاته مكانة متسعة أكثر فأكثر للتشريع العلماني الدنيوي. وهذا التناقض غالباً ما يظهر أثناء مناقشة قانون الأحوال الشخصية الذي لا يزال خاضعاً للأحكام القرآنية. وعليه، هذه المبادئ حسب أركان تتجذر في المخيال الديني المشترك، لكنها تتأثر بالتغيرات الاجتماعية والسياسية الحديثة، ما يخلق تناقضات واضحة.

3. تحليل وتقييم:

فيما يتعلق برؤية أركان إلى الوحي وإلى تاريخ القرآن وخصائصه هناك بعض النقاط الجديرة بالطرح، نشير هنا إلى ما هو الأهم منها على النحو الآتي:

1.3. القرآن بين الشفهي والكتابي:

تعد قضية الخطاب الشفهي والخطاب الكتابي أو ما يسميه أركان (التلفظ/النص) أو (الكلام القرآني المفوظ/المدونة الرسمية المغلقة) من أبرز القضايا التي ركز عليها وتوقف عندها في أغلب مؤلفاته إسهاباً وإيجازاً، وهذا التفكيك بين الشفهي والكتابي والذي يشكل أرضية لنظريته في باب الوحي والقرآن ليس من إبداعاته، بل هو مستعار من العالم الأنثروبولوجي الإنجليزي جاك غودي و هو عنوان لكتابه: الشفهية والكتابية، ثم إنه بالإضافة إلى ذلك لم يقدّم برهاناً نظرياً خاصاً على هذا الفصل والتفكيك، ومن هنا تكون نظريته مجرد دعوى من دون دليل¹، فهو من خلال تمييزه بين القرآن الشفهي والقرآن المكتوب، لا يعترف إلا بالقرآن الشفهي الذي يمثل الحقيقة، ولم يعد الوصول إليه ممكناً، وأما القرآن المدون والمكتوب فلا يبدو حقيقياً، لأنه تبلور في خضم النزاعات السياسية الاجتماعية، وارتدى ثوب القداسة ضمن العملية التاريخية من خلال التعريف بالآداب والمناسك الخاصة أو أنواع الاستدلالات بشأنه، وأخذ يتم التعريف به بوصفه كتاباً مقدساً. كما أن تحليلات أركان لا تتوافق مع الروايات التاريخية المعتمدة، ولا مع النصوص

1- أحمد فاضل السعدي، 2012، القراءة الأركونية للقرآن دراسة نقدية، ط1، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ص 469.

القرآنية نفسها، فالقرآن يحتوي على العديد من الآيات التي تخالف آراءه، ومنها تلك التي تشير إلى القرآن بلفظ "الكتاب" وتؤكد وجوده في "أم الكتاب" و "اللوح المحفوظ"، مما يدل على أنه مكتوب ومنزل بلسان عربي. كما تؤكد آيات أخرى أن القرآن نزل بلفظه ومعناه على الرسول (ص)، مما يعني أن نزوله كان لفظيا ومعنويا. وإذا قبلنا بفكرة أنه كان شفهيًا فقط ولم يدون في عهد النبي، فإن التعبير بـ "الكتاب" في هذه الآيات يصبح بلا معنى، وهو يعارض النصوص القرآنية نفسها. ثم إن العمل على جعل النص القرآني مثل باقي النصوص الأدبية، وتبني المناهج الغربية في التعامل معه، أدى ليس فقط إلى الطعن في إطلاعية أحكامه ومضامينه بل حتى في ثبوت لفظه، وبالتالي فهو يشكك في عملية الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى النص المدون، معتقدا أن هذه المرحلة شابتها عمليات حذف وانتقاء وتلاعب لغوي. زاعما أن ليس كل الخطاب الشفهي تم تدوينه بالكامل، وأن بعض المحتويات فقدت خلال هذه العملية، خاصة لأن جمع القرآن تم في ظل صراعات على السلطة والمشروعية.

2.3. التحليل الأركوني للوحي: بين الانتقائية والإيديولوجية العلمانية.

تغلب سمة الانتقائية على دراسات أركون، حيث يوجهها لتحقيق أهدافه الإيديولوجية بدلا من تقديم تحليل موضوعي، فهو يتبنى منظورا علمانيا ينكر القداسة، ويرفض أي تفسير مفارق ومتجاوز للنصوص الدينية، مع سعيه لإثبات تاريخية النص القرآني واعتباره بحاجة إلى بدائل ثقافية أخرى تقدم إجابات يتعذر على القرآن تقديمها.

وفي إطار هذا الاتجاه العام تمثل الاتجاهات العلمانية بالنسبة إلى الوحي طيفا من النظريات التي تتجنب اعتبار إلهية وقداسة ما يحصل من قبل الوحي، همها زحزحة النص المؤسس الذي يمثل المرجعية، وبذلك "...يصبح النص القرآني مجرد نص تم إنتاجه وفقا لمقتضيات الثقافة التي تنتمي إليها لغته، ولا يمكن أن يفهم أو يفسر إلا بالرجوع إلى هذا المجال الثقافي الخاص، بحيث ينزل من رتبة التعلق بالمطلق إلى رتبة التعلق بالنسبي"¹، وعلى

1- عبد الرحمن طه، 2006، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 180.

الرغم من اشتراك الاتجاهات العلمانية في هذه النقطة هناك في الوقت نفسه -بطبيعة الحال - بعض الاختلافات بينها أيضا، فهناك من ينكر الوحي صراحة، بينما تذهب الاتجاهات الأخرى إلى اختيار منهج أكثر مرونة تجاه الوحي، ويعد أركون من المنخرطين في الاتجاه الأخير، فهو لا ينكر الوحي ولا يشكك في البعد الإلهي لهذه الظاهرة، ومع ذلك يمكن اعتبار توجهه علمانيا من عدة جهات:

أولا: إلحاح أركون على دراسة الوحي كظاهرة نفسية وأنتروبولوجية، مما يعكس محاولته لاستبعاد البعد الإلهي للوحي وتنزيل مقامه إلى مستوى بشري، بهدف ترسيخ فكرة بشرية ووضعية الوحي.

وعلى الرغم من أنه لا يمتلك صراحة نصر حامد أبو زيد، إلا أنه يشارك نفس الفكرة حول الوحي، حيث يعتبره حالة نفسية داخلية دون ارتباط بالعالم الأعلى، متأثرة بالظروف التاريخية والاجتماعية. لذا، يعتقد أن الوحي يمكن أن يشمل تجارب روحية لأمثال بوذا وكونفوشيوس أيضا.

ومن خلال الرجوع إلى ذات القرآن يمكن لنا أن ندرك أن الوحي هو حقيقة فوق متعالية، وبالإضافة إلى "المرسل إليه" أو مستقبل الوحي الذي هو النبي (ص)، فإن لـ "المرسل" وباعث الوحي الذي هو الله، وكذلك "واسطة الإرسال" أي ملك الوحي الذي يتم التعبير عنه في المصطلح القرآني بـ "الروح الأمين"، يؤثر في مسار الوحي، وهي حقائق خارجية، وإن الكثير من الآيات تدل على حقيقة الوحي الخارجية (الآية 9 الحجر، 51 الشورى، 105 النساء، 30 الرعد). كما لا بد من الالتفات إلى أن أركون في تقليل مفهوم الوحي إلى الأمر النفسي والداخلي يتناغم مع الكثير من المستشرقين الذين كان لهم تأثير كبير على بلورة أفكاره.

ثانيا: من زاوية أخرى يمكن اعتبار "إخراج البعد المتعالي للوحي عن المتناول" تعليقا له طبقا للأسلوب الظاهراتي، كما قام أركون نفسه بدراسة الوحي تحت عنوان "المقاربة الظاهراتية أو الفينومينولوجية" أيضا، وفي هذا المقام يعتبر إخراج البعد المتعالي للوحي عن المتناول هو ذات تعليق البعد الإلهي والمتعالي من الوحي، والذي يؤدي من الناحية العملية إلى نفي الوحي وإلغائه، فبدلا من التصريح بعدم إلهية الوحي، يسعى أركون إلى الالتفاف على ذلك

من خلال تحديد مستويات مختلفة للوحي وأخذ البعد المتعالي له بعين الاعتبار، فهو ليس بمتناول أحد ولو كان نبيا، وعليه يكون المتناول لدى عامة الناس ليس الوحي في بعده المتعالي إنما هي المدونة الرسمية المغلقة.

3.3. نفي المكانة المعيارية والقيمة المعرفية للوحي:

يعتبر الوحي في الرؤية الأركونية مجرد ظاهرة تاريخية تفتقر إلى القيمة المعرفية، وعلى الرغم من ترسيخ دعائم الحضارة، لا يقبل التبعية في جميع الأزمنة، بل هو بحاجة إلى إعادة نظر مستمرة وقراءات منفتحة، وعلى هذا الأساس فإن أركون يدعو إلى ضرورة الاستقلال عن الوحي والدين شأنه في ذلك شأن جميع أصحاب الاتجاهات الحداثية وما بعد الحداثية في نظرتهم إلى الدين والوحي، وهو ما يتعارض مع جميع الأدلة العقلية على ضرورة الوحي والنبوة، والتي تنفي هذا النوع من التحليلات التاريخية. لذلك يتعين عليه الإجابة عن هذه الطائفة من البراهين العقلية إذا ما أراد إثبات رؤيته، وإلا فإنه سيجد نفسه في دائرة متناقضة، فمن جهة يدعي الانتماء إلى الإسلام ويتكلم باسمه، ومن جهة أخرى ينفي قداسة الوحي والدين، كذلك من بين ما يذهب إليه بشأن الوحي، قوله أن الوحي عبارة عن أطروحة دلالية للوجود، لا كلام معياري ثابت للبشر، بل هو قابل لإعادة النظر والنقض، فقراءة النص القرآني يجب أن تتحرر من كل المعايير والضوابط التي من شأنها أن تحول بين الإنسان ومراده، وهذا يعني احتمالية أن يقدم الوحي مفهوما ناقصا أو مغلوطا للوجود، والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن القرآن يحتاج فعلا إلى استنطاق وتدبر وتأمل بشكل مستمر، لكن لا يحتاج إلى إعادة نظر وتقييم، فهو كتاب هداية وقد بين الأمور المتعلقة بذلك، حيث بين حقيقة الإنسان وكمالاته وحقيقة الوحي والأنبياء وأجاب عن الأسئلة الأساسية من المبدأ والمعاد والنبوة وغيرها.

4.3. إهدار القيمة الرمزية للنبي وخفض منزلته إلى مستوى الأبطال التاريخيين:

إن تحليل شخصية "النبي" من زاوية المفاهيم الأنثروبولوجية، من قبيل تصور الرجل العظيم كبطل تاريخي يؤدي إلى تقليص مكانة النبي الإلهي، وتحويله إلى شخصية تاريخية تفقد الرسالة السماوية. يُنظر إليه حينها على أنه مجرد ظاهرة ذات تأثير على حياة البشر، بغض النظر عن وجود حقيقة خلف هذا التأثير أم لا، فحتى الأوهام يمكن أن تترك أثرا في

المجتمع أيضًا. ويضاف إلى هذا الإشكال أن رؤيته لا تتعارض فقط مع عقيدة المسلمين، بل أيضًا مع عقيدة جميع المؤمنين بالأديان الإلهية، حيث يرى أن الأنبياء جاءوا برسائل إلهية من الله لهداية البشر، والوحي ليس محصورا بالأديان الإلهية بل يشمل أيضا البوذية والكونفوشيوسية، وقد ينطبق أيضا على كبار المصلحين. بهذا التوجه، يساوي أركون بين القرآن والنصوص البوذية والهندوسية، رغم أن هاتين الأخيرتين لم تدعيا الوحي والنبوة، واعتبرت قداسة النصوص فيهما من قبل أتباعها في مراحل لاحقة، مما يجعلهما مدرستين أخلاقيتين. وعليه، يتضح أن اعتقاد أركون يتناقض مع العقيدة الإسلامية التي تؤكد خاتمية النبوة، حيث يعتبر جميع الأنبياء تمهيدا لظهور النبوة الخاتمة كدستور إلهي شامل. وهذا الاعتقاد يتجاوز اعتراضه على العقيدة الإسلامية ليعارض براهين مفهوم الخاتمية. ورغم إمكانية وجود تجارب باطنية لدى شخصيات مثل بوذا وكونفوشيوس، فإن الوحي يختلف عن هذه التجارب الصوفية والشعرية التي تكون عابرة ومؤقتة. فالنبي يعيش تجربة متصلة ودائمة مع الله، وينقل رسالة إلهية مستمرة.

5.3. أنسنة النص القرآني:

تسعى الاتجاهات الحداثية إلى أنسنة القرآن عبر فصل النص القرآني عن الغيب وتجريده من قداسته، معتبرة إياه نصا تاريخيا بشريا، فنحن نجد أركون يصف الأنسنة بأنها عملية متواصلة تشمل تجاوز النظم الفكرية والدينية التقليدية، مؤكدا أن القرآن كما هو اليوم ليس مقدسا ولا سماويا، بل هو مجموعة من المدونات التي كتبها الصحابة بعد وفاة النبي (ص)، حيث جمع النص وأعيد ترتيبه، مما جعله نصا تاريخيا وليس إلهيا. ويرى أن القرآن تشكل في سياق اجتماعي وثقافي محدد، وأن رفعه إلى درجة المقدس يخفي أصوله التاريخية. ومع ذلك، تفند الأدلة العلمية هذا الادعاء، حيث تثبت الشواهد أن الوحي كتب أثناء حياة النبي (ص) على يد كتاب الوحي، مما يعني أن القرآن دون بشكل كامل خلال حياته.

خاتمة:

نفضي في خاتمة المقال إلى خلاصات مفادها:

-الدراسات الاستشراقية حول الوحي القرآني أظهرت أن قضايا أركون ليست جديدة، بل هي امتداد للاستشراق الغربي، لكنها تأتي بوجهة نظر مفكر عربي مستفيدة من مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية.

-القراءة اللسانية التي اقترحها أركون تقارب النص القرآني كما لو كان نصا أدبيا عاديا، مشابهة لقراءات المشركين في زمن النزول.

- استبدال مفهوم التفسير بمفهوم القراءة يعتبر غير ملائم، إذ تخضع القراءة لتصورات القارئ الذاتية وتؤدي الى تفسيرات إيديولوجية.

- أركون، منذ أطروحته للدكتوراه، دعا الى الأنسنة التي حولت ثنائية الله والإنسان الى الإنسان والله، مما قلل من دور الله في النصوص.

- جهد أركون كان موجها لتأصيل مقولات غربية مثل الحداثة والأنسنة والعلمنة ضمن الإطار الإسلامي.

- عدم تمييز أركون بين تدوين وجمع وتوحيد المصاحف أوقعه في تناقضات.

- أركون يرى النص القرآني كمدونة تاريخية ضائعة حقيقتها، مختزلا إياه الى ظاهرة مادية تاريخية بدلا من كونه نصا إلهيا.

- النقد الأركوني يهدف الى إزالة القدسية عن النص القرآني، وربطه بشروطه التاريخية والثقافية، مما يفرغه من معانيه الإلهية ويجعله مجرد نص بشري.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد فاضل السعدي. *القراءة الأركونية للقرآن دراسة نقدية*. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. بيروت. ط1، 2012.
- 2- عبد الرحمن طه. *روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية*. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط1، 2006.
- 3- عبد المجيد الشرفي. *الإسلام بين الرسالة والتاريخ*. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. ط1، 2008.
- 4- محمد أركون. *نافذة على الإسلام*، دار عطية للنشر. بيروت. ط1، 1996.
- 5- محمد أركون. *الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي*. دار الساقى. بيروت. ط1، 1996.
- 6- محمد أركون. *الإسلام، الأخلاق والسياسة*. مركز الإنماء القومي. بيروت. ط1، 1990.
- 7- محمد أركون. *العلمنة والدين، الإسلام المسيحية الغرب*. دار الساقى. بيروت. ط3، 1996.
- 8- محمد أركون. *القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني*. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. ط1، 2001.
- 9- محمد أركون. *القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني*. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. ط1، 2001.
- 10- محمد أركون. *الفكر الإسلامي نقد واجتهاد*. دار الساقى. بيروت. ط4، 2007.
- 11- نصر حامد أبو زيد، *نقد الخطاب الديني*، سينا للنشر، القاهرة. ط2، 1994.